عيّنة من الكتاب

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

المُشكلة الأخيرة

وثلاث قصص أخرى

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لأربع من قصص
شيرلوك هولمز المنشورة أول مرة عام ١٨٩٣

The Adventure of the Resident Patient
The Adventure of the Greek Interpreter
The Adventure of the Naval Treaty
The Final Problem

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

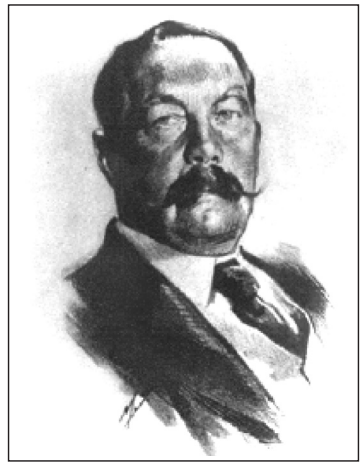

آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطَرَّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلّات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القِرْمِزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدَّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلَّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنْغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البُويِر (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولَقَبها «سيرْ» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته

وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِيةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغاثا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قَتل» دويل بطلَه شيرلوك هولمز، لكنه واجهَ احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القِرْمِزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشُغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يَحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كولْيِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقّاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنْسيّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفِسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالَم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هَليدي وأَلِكْ بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هَوارد إلْكوك وفرانك وايْلز وألفرِدْ جِلبرْت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كولِيرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردرِك دورْ ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش ورِتشارد غوتشمت ووليَم هايْد.

* * *

مذكرات شيرلوك هولمز
(٩)

لُغز المَريض المُقيم

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سْتراند» الشهرية
في عدد آب (أغسطس) ١٨٩٣

حين أُلقي نظرة على سلسلة المذكرات (التي أسعى من خلالها إلى توضيح بعض المميزات الاستثنائية لصديقي شيرلوك هولمز) يذهلني مدى الصعوبة التي أواجهها في اختيار الأمثلة التي تحقق الغرض الذي أسعى إليه من كل النواحي، ففي بعض القضايا التي وصل فيها هولمز إلى نتيجة مبهرة في التحقيق والتحليل المنطقي كانت الحقائق نفسها بسيطة جداً أو شائعة جداً بحيث لا أستطيع أن أشعر بمبررات عرضها على الناس، ومن ناحية أخرى حدث كثيراً أن كان مهتماً بقضايا كانت حقائقها ذات خصائص مثيرة، ولكن كان نصيب هولمز في تحديد أسبابها أقل وضوحاً مما أتمناه وأنا أكتب قصص مغامراته.

في القضية التي سأكتب قصتها الآن لم يُظهِر الدورُ الذي لعبه صديقي قدراته ومهاراته التحليليةَ بما فيه الكفاية، ومع ذلك فقد كان تسلسل أحداث القضية مذهلاً بحيث لم أستطع حذفها من المذكرات.

* * *

كان يوماً ممطراً كئيباً من أيام شهر تشرين الأول (أكتوبر) حين قال لي هولمز: إنه جو غير صحّي يا واطسون، ولكن المساء حمل معه بعض النسمات، فما رأيك بنزهة في شوارع لندن؟

كنت قد مللت غرفتنا الصغيرة، فوافقت بسعادة. خرجنا فتجولنا معاً لنحو ثلاث ساعات نشاهد تقلبات الحياة وتغيراتها وهي تأتي وتذهب عبر شارعَي فليت وستراند، وقد سحرني كلام هولمز بمراعاته الحادة للتفصيلات وقوة استدلاله

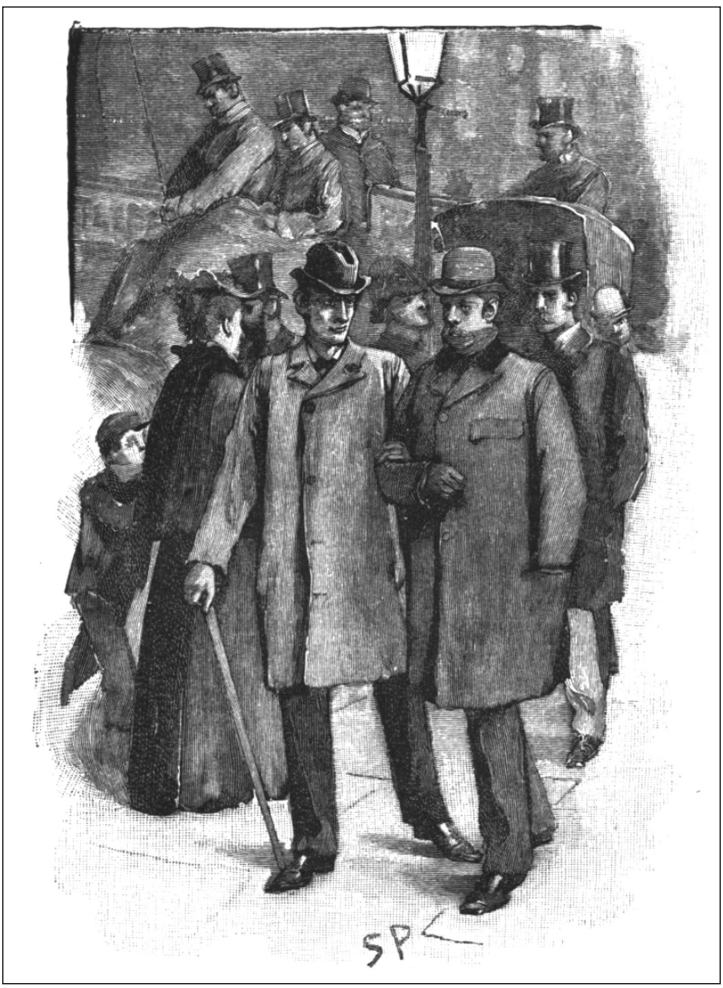

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

الخفية، فلم نَعُد إلى شارع بيكر ثانية إلا في الساعة العاشرة، حيث وجدنا عربة تنتظرنا عند بابنا.

قال هولمز: آه، يبدو أنه طبيب، ممارس عام كما ألاحظ، ولم يمضِ عليه وقت طويل في العمل وإن كان قد أنجز الكثير، وأتصور أنه جاء لاستشارتنا. من حسن الحظ أننا عدنا في الوقت المناسب.

كنت مطلعاً على أساليب هولمز بشكل كافٍ مكّنني من تتبع افتراضاته المنطقية، فقد توصل إلى استنتاجه السريع -كما توقعت- بملاحظة حالة الآلات الطبية المختلفة الموجودة في سلة معلقة داخل العربة تحت ضوء المصباح، كما دل وجود ضوء في نافذتنا على أن هذه الزيارة المتأخرة كانت لنا بالفعل.

تبعت هولمز إلى مسكننا وأنا أشعر ببعض الفضول لمعرفة السبب الذي جاء بطبيب زميل إلينا في هذه الساعة المتأخرة، وحين دخلنا الغرفة أبصرنا رجلاً شاحباً ذا وجه مخروطي وشعر أشقر وقد جلس على مقعد قريب من المدفأة. لم يكن عمره ليزيد على أربعة وثلاثين عاماً، ولكن ملامحه المنهَكة ومظهره غير الصحي أشارا إلى أن الحياة قد استنزَفت قوته وسرقت شبابه.

كان أسلوبه انفعالياً، وكان خجولاً كرجل محترَم حساس، وحين وضع يده الرقيقة الشاحبة على المدفأة لينهض وجدتُها تشبه يد الفنان لا يد الطبيب، أما ملابسه فكانت قاتمة، فقد ارتدى معطفاً طويلاً أسود اللون يمتد حتى الركبة

وبنطالاً داكناً مع بعض اللون في رباط عنقه.

قال هولمز بسرور: مساء الخير دكتور. يسرّني أنك لم تنتظرنا إلا بضع دقائق قليلة فقط.

- لقد تحدثتَ مع حوذي عربتي إذن؟

- لا، بل عرفت من هذه الشمعة على الطاولة. أرجو أن تجلس ثانية في مقعدك وتخبرني كيف أستطيع خدمتك.

قال زائرنا: أنا الدكتور بيرسي تريفليان، وأعيش في المبنى رقم ٤٠٣ في شارع بروك.

سألته قائلاً: ألست أنت مؤلف تلك الدراسة عن الأمراض العصبية الغامضة؟

ظهرت السعادة على وجهه وتدفق الدم إلى خديه الشاحبين حين وجدني أعرف عمله وقال: من النادر جداً أن أسمع عن هذا الكتاب، حتى ظننت أنه انتهى تماماً، فناشري أعطاني بياناً مُحبطاً جداً عن مبيعاته. هل أفهم من ذلك أنك طبيب؟

- طبيب عسكري متقاعد من الجيش.

قال: الأمراض العصبية كانت هوايتي دائماً، وأتمنى أن أجعلها تخصصي في المستقبل، ولكن يجب على المرء أن يأخذ ما يستطيع الحصول عليه أولاً. هذا أمر ثانوي على أية حال، فأنا أقدّر أن وقتك ثمين يا سيد هولمز، والحقيقة أن سلسلة من الأحداث الغريبة قد وقعت مؤخراً في منزلي في

شارع بروك، والليلةَ بات من المستحيل أن أنتظر ساعة أخرى دون طلب مساعدتك ونصيحتك.

جلس شيرلوك هولمز فأشعل غليونه ثم قال: سأقدم لك المساعدة والنصيحة بكل رحابة صدر، لكن أرجو منك أولاً أن تقدّم لي وصفاً مفصلاً عن الأحداث التي تزعجك.

قال الدكتور تريفليان: بعض هذه الأمور تافه جداً لدرجة أنني أخجل من ذكره، ولكن الأمر غير قابل للتفسير والاتجاه الأخير الذي سارت فيه الأحداث معقد جداً، لذلك سأقصه عليك لتحكم بنفسك على ما هو مهم وما هو غير مهم.

بدايةً سأشرح بعض الشيء عن ماضيّ الدراسي. أنا خريج جامعة لندن كما تعرف، وأرجو أن لا تظن أنني أثني على نفسي بإفراط لو قلت إن أساتذتي -وأنا طالب- اعتبروا أن لي مستقبلاً واعداً جداً. وبعد أن تخرجت بقيت على تكريس جهودي للبحث، وشغلت وظيفة صغيرة في مستشفى كنْغز كوليدج، وكنت محظوظاً لأن بحثي في علم أمراض الإغماء التخشبي أثار اهتماماً كبيراً، وفزت أخيراً بجائزة بروس بينكرتون وبميدالية عن بحث إصابات الأعصاب الذي أشار إليه صديقك، ويجب أن أشير الآن إلى أن توقعي في ذلك الوقت كان بأن أمامي مستقبلاً مميزاً.

كانت العقبة الكبرى أمامي هي حاجتي إلى المال، وسوف تفهم بسرعة أن الإخصائي الذي يطمح في التقدم يكون مرغَماً على أن يبدأ في واحد من الشوارع الاثني عشر

في منطقة ساحة كافنديش، وكلها تتطلب إيجارات باهظة ونفقات للتأثيث بالإضافة إلى النفقات التمهيدية، ويجب أن يكون المرء قادراً على أن يعول نفسه لعدة سنوات وأن يستأجر حصاناً وعربة أنيقة. كان هذا كله فوق طاقتي، فتمنيت أن أتمكن بالاقتصاد من توفير ما يكفي لفتح عيادتي الخاصة خلال عشرة أعوام. وفجأة وقع أمر فتح أمامي آفاقاً جديدة.

كانت تلك هي زيارة سيد لم أعرفه من قبل اسمه بلسِنْغتون، حيث جاء إلى غرفتي صباح أحد الأيام ودخل في حديث العمل مباشرة؛ قال: هل أنت بيرسي تريفليان ذو السيرة المِهَنية المميزة والذي فاز بجائزة عظيمة مؤخراً؟

أومأت بالإيجاب، فاستمر قائلاً: أجبني بصراحة وستجد ذلك في مصلحتك. أنت تملك كل المهارة التي قد تجعلك رجلاً ناجحاً، فهل تملك حسن التصرف؟

لم أتمالك نفسي من الابتسام بسبب فظاظة السؤال وقلت: أظن أنني أملك منه قدراً كافياً.

- هل لديك عادات سيئة؟ هل تميل إلى الشراب مثلاً؟

صحت قائلاً: بالطبع لا يا سيدي!

- ممتاز، كل هذا ممتاز، ولكني مضطر إلى سؤالك: لماذا لم تفتح عيادة وأنت تتمتع بكل هذه الميزات إذن؟

رفعت كتفي يأساً، فقال بطريقته النشطة: هيا، هيا! إنها نفس القصة القديمة. لديك المؤهلات العقلية ولكن دون

القدرة المادية، أليس كذلك؟ ماذا ستقول إذن لو أخبرتك أنني سأساعدك لتبدأ العمل بشارع بروك؟

حملقت إليه بذهول فصاح قائلاً: هذا الأمر لصالحي وليس لأجلك. سأكون صريحاً معك، ولو ناسبك الأمر فسوف

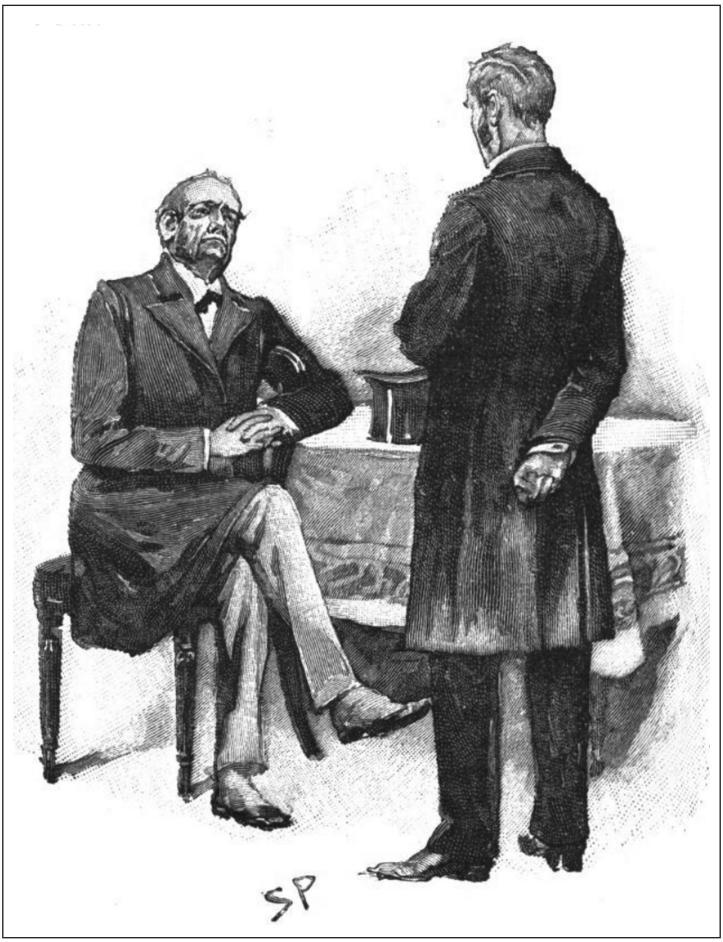

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

يناسبني تماماً أنا أيضاً. أملك بضعة آلاف وأريد استثمارها، أتفهم؟ وأعتقد أنني سأستثمرها فيك.

شهقت قائلاً: ولكن لماذا؟!

- حسناً، إنها مثل أي مضاربة مالية أخرى، وإن كانت أكثر أماناً من معظمها.

- ما الذي عليّ فعله إذن؟

- سأخبرك. سوف أستأجر المنزل وأتولى تأثيثه، وسأدفع للعاملين وأدير المكان، وكل ما عليك فعله هو أن تتقلد كرسيك في غرفة الكشف، وسأعطيك المال لمصاريفك الشخصية وبقية النفقات، وبعد ذلك تعطيني ثلاثة أرباع ما تكسب وتحتفظ بالربع الباقي.

كان هذا هو العرض الغريب الذي قدمه لي ذلك الرجل يا سيد هولمز. ولن أزعجك بوصف تفصيلات مفاوضاتنا ومساوماتنا، فقد انتهى الأمر بانتقالي إلى الموقع الجديد، وبدأت بالعمل في العيادة بنفس الشروط التي اقترحها، وأتى هو بنفسه للإقامة على أنه «مريض مُقيم»، فقد كان قلبه ضعيفاً كما يبدو ويحتاج إلى إشراف طبي مستمر، فحوّل أفضل غرفتين في الشقة إلى غرفة جلوس وغرفة نوم له!

كان رجلاً ذا عادات غريبة، فهو يتجنب الصحبة ولا يخرج إلا نادراً، ولكنه كان شديد الانتظام فيما يتعلق بأمر واحد. كان يدخل إلى غرفة الكشف كل مساء في الموعد نفسه

ليفحص الحسابات ويترك لي خمسة شلنات وثلاثة بنسات من كل جنيه أربحه، ثم يأخذ الباقي ليحفظه في خزنة في غرفة نومه.

وأستطيع القول بثقة إنه لم يندم على مخاطرته، فقد نجحتُ منذ البداية، فبفضل بعض الحالات القليلة الناجحة، بالإضافة إلى سمعتي في المستشفى، صرت في المقدمة بسرعة، وقد جعلت منه رجلاً غنياً خلال هذه السنوات القليلة الماضية.

هذا كل ما يختص بعلاقتي بالسيد بلسنغتون، ويبقى فقط أن أخبرك بما حدث ودفعني إلى الحضور إليك هذه الليلة. منذ عدة أسابيع والسيد بلسنغتون في حالة هياج كما بدا لي، وقد تحدث عن سرقةٍ ما وقعت في الطرف الغربي من المدينة، وبدا منفعلاً بغير ضرورة بسبب تلك السرقة، فأعلن أنه يجب أن لا يمرّ علينا يوم آخر دون وضع مزاليج أقوى على النوافذ والأبواب.

استمرّ لأسبوع على هذه الحالة من القلق، فقد كان ينظر دائماً من النوافذ، وتوقف عن نزهة المشي القصيرة التي كانت تسبق عشاءه دائماً. وقد خطر لي من تصرفاته أنه في حالة هلع شديد من شيء ما أو شخص ما، ولكنه انقلب إلى رجل شرس جداً حين سألته عن الأمر لدرجة أنني اضطررت إلى التخلي عن بحث الموضوع. وبمرور الوقت بدأت مخاوفه تختفي، فاستعاد عاداته القديمة، حتى حدث شيء جديد أحاله إلى

حالة الانهيار التي هو فيها الآن. منذ يومين تلقيت خطاباً لم يحمل أي عنوان أو تاريخ، وها هو نصّه:

نبيلٌ روسيّ يعيش في إنكلترا حالياً يسرّه أن يستفيد من المساعدة الطبية للدكتور بيرسي تريفليان، فهو ضحية لمرض الإغماء التخشبي منذ سنوات، وهو المرض الذي يشتهر الدكتور تريفليان بأنه خبير فيه، وهو يقترح أن يزور العيادة في الساعة السادسة والربع غداً مساء إذا كان الدكتور مستعداً لاستقباله عندئذ.

أثار هذا الخطاب اهتمامي العميق لأن المشكلة الرئيسية في دراسة مرض الإغماء التخشبي هي ندرته، وكنت في غرفة الكشف حين أدخل مساعدي المريضَ الروسي إلى الغرفة في الموعد المحدد.

كان رجلاً عجوزاً نحيلاً رزيناً، وقد جعله شكله المألوف بعيداً عن الشكل الذي نتخيّله لنبيل روسي، ولكنني ذهلت أكثر بمظهر رفيقه الذي كان شاباً طويلاً بالغ الوسامة ذا وجه داكن حادّ القسمات وجسم مفتول العضلات. كان يتأبّط ذراع الرجل العجوز عندما دخلا، ثم ساعده ليجلس على الكرسي بحنان لا يتوقعه المرء من رجل بهذه الهيئة.

قال لي بلغة إنكليزية فيها لثغة بسيطة: أعتذر عن دخولي يا دكتور، فهذا أبي وصحته ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي.

أثر قلقه على والده في نفسي فقلت: لعلك تريد البقاء في أثناء الفحص؟

صاح بلهجة فيها بعض الخوف: محال، سيكون هذا مؤلماً لي؛ لا أحب رؤية أبي في إحدى نوباته المرعبة، فجهازي العصبي حساس بشكل خاص. لو سمحت لي فسوف أنتظر في غرفة الانتظار حتى تنتهي من فحصه.

وافقت على ذلك بالطبع، فانسحب الشاب، ثم ناقشت المريض في حالته وأخذت بعض الملاحظات المرهقة، فالرجل لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء وكانت إجاباته غريبة في معظم الأحيان، وقد قدرت أن سبب ذلك هو ضعفه

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

بلغتنا. وفجأة وفيما أنا أكتب توقف عن الإجابة عن أسئلتي، وحين نظرت إليه صُدمت برؤيته متصلباً في كرسيه وقد تصلب وجهه وصارت نظراته جوفاء. لقد وقع في قبضة المرض من جديد!

للوهلة الأولى كانت مشاعري مشاعرَ شفقة ورعب، لكني سأعترف بأنها تحولت سريعاً إلى نوع من الرضا المهني، فأخذت ملاحظات عن نبض المريض ودرجة حرارته ثم اختبرت تصلب عضلاته وتفحصت ردود أفعاله، فلم أجد أي عَرَض جديد يختلف عمّا كنت أعرفه بخبرتي السابقة.

رسم ولْيَم هايْد (١٨٩٣) William Hyde (1893)

ولما كنت قد حصلت في الماضي على نتائج طيبة في مثل هذه الحالات باستنشاق دواء اسمه أميل النيترات فقد بدت هذه الحالة أمامي فرصة طيبة لأجرب فعّاليته. وكانت زجاجة الدواء في الدور السفلي في معملي، فتركت مريضي في مقعده وأسرعت لأحضرها، ولكني تأخرت قليلاً في العثور عليها، لنقُل خمس دقائق، وعندما عدت... يمكنك أن تتخيل ذهولي حين وجدت الغرفة خالية والمريض قد اختفى!

كان تصرفي الأول -بالطبع- هو البحث في غرفة الانتظار، فلم أجد الابن أيضاً! كان باب الصالة مغلَقاً ولكنه غير مُقفَل، أما المساعد الذي يُدخِل المرضى فهو جديد وليس سريعاً بأي حال من الأحوال، فهو ينتظر في الأسفل حتى أدقّ له الجرس في غرفة الكشف فيسرع ليدلّ المرضى على باب الخروج، ولم يكن قد سمع شيئاً. وهكذا بقي الأمر لغزاً غامضاً، وعندما جاء السيد بلسنغتون من نزهته بعد ذلك بقليل لم أخبره بشيء عن الموضوع، لأنني كنت قد بدأت مؤخراً بتخفيف التعامل معه قدر المستطاع.

حسناً، لم أظن أنني سأرى الروسيّ وابنه مرة أخرى، فتخيل دهشتي عندما دخلا إلى غرفة الاستشارة في نفس الموعد هذا المساء تماماً كما فعلا من قبل!

قال مريضي: أشعر أنني مدين لك بالكثير من الاعتذارات بسبب رحيلي المفاجئ أمس يا دكتور.

قلت: أعترف بأن الأمر قد أثار دهشتي الكبيرة.

علق قائلاً: حسناً، الحقيقة أنني عندما أفيق من هذه النوبات يكون عقلي مشوشاً وأنسى كل ما حدث قبل النوبة، فعندما أفقت أمس في غرفة غريبة -كما بدا لي- وأنت غائب اتجهتُ إلى الشارع وأنا في حالة ذهول.

قال الشاب: أما أنا فحين رأيت أبي يعبر باب غرفة الانتظار اعتقدت أن الاستشارة انتهت، ولم أدرك حقيقة ما حصل إلا بعد وصولنا إلى المنزل.

قلت ضاحكاً: حسناً، لم يحدث أي ضرر سوى أنكما أثرتما حيرتي الشديدة، فلو سمحت إذن يا سيدي ادخل إلى غرفة الانتظار، فيسعدني استكمال الاستشارة التي انتهت نهاية مفاجئة أمس.

بحثت مع العجوز المحترَم أعراضَ مرضه لمدة نصف ساعة، وبعد ذلك وصفت الدواء، ثم رأيته يغادر متكئاً على ذراع ابنه.

أخبرتكم بأن السيد بلسنغتون عادة ما يختار هذه الساعة من اليوم لرياضته اليومية، وقد جاء بعد مغادرتهما بقليل واتجه إلى الدور العلوي، وبعد قليل نزل مهرولاً واندفع إلى غرفة الكشف كرجل أطار الخوفُ صوابَه! صاح قائلاً: من دخل إلى غرفتي؟

قلت: لا أحد.

صرخ قائلاً: كذب! اصعد وانظر بنفسك.

تغاضيت عن فظاظة أسلوبه وصعدت معه إلى غرفته، وهناك أشار إلى عدة آثار أقدام فاتحة اللون كانت على السجادة وصاح قائلاً: هل تظن أن هذه آثار أقدامي؟

كانت الآثار أكبر بكثير من قدميه بالتأكيد، ومن الواضح أنها آثار حديثة، فقد أمطرت السماء بغزارة بعد ظهر هذا اليوم كما تعلم، وحيث إنه لا يأتي إلى المنزل إلا مرضاي فلا بد أن ما حدث هو أن الرجل الذي كان في غرفة الانتظار قد استغل انشغالي مع العجوز ثم صعد -لسبب مجهول- إلى غرفة مريضي المقيم، ومع أنه لم يأخذ أو يلمس أي شيء إلا أن آثار الأقدام تُثبِت أن الاقتحام كان حقيقة لا شك فيها.

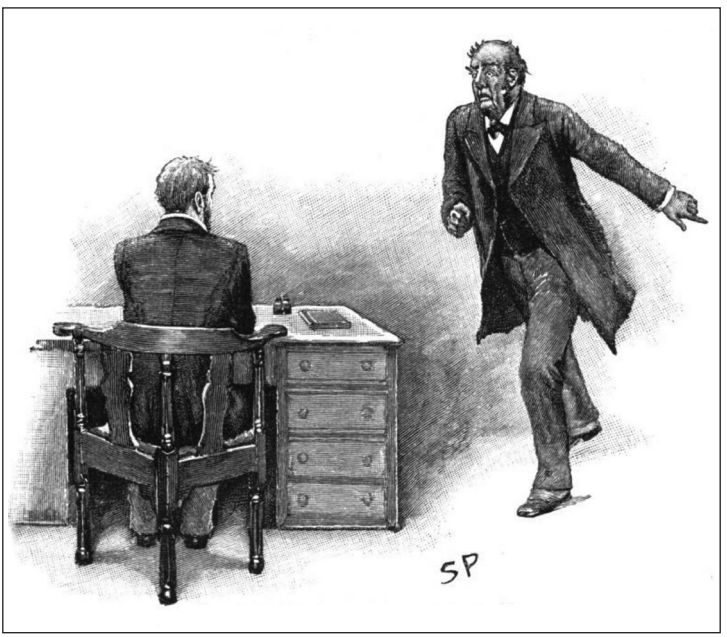

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

بدا السيد بلسنغتون منفعلاً أكثر مما توقعت، مع أن ما حدث كان كافياً لإثارة قلق أي شخص بالطبع. جلس يبكي على أحد المقاعد، واستطعت حثّه على الكلام المتماسك بصعوبة. وكان هو مَن اقترح أن آتي إليك، وبالطبع وافقت على ذلك في الحال لأن الواقعة غريبة جداً، بالرغم من أنه يبالغ في خطورتها. فلو أتيت معي في عربتي فقد تنجح في تهدئته على الأقل، رغم أنني أشك في أنك ستنجح في تفسير هذه الحادثة غير العادية.

* * *

استمع هولمز إلى هذه الحكاية الطويلة بإمعان دلّني على أنها أثارت اهتمامه، وعندما أنهى زائرنا كلامه قفز هولمز واقفاً دون أي كلمة، ثم أعطاني قبعتي والتقط قبعته، وبعد ذلك تبع الدكتور تريفليان. وبعد ربع ساعة توقفنا أمام باب الطبيب في شارع بروك، وهو أحد تلك المنازل البسيطة الكئيبة مثل معظم عيادات الطرف الغربي من لندن.

أدخلَنا بواب صغير الحجم، وبدأنا على الفور صعود الدرجات العريضة المفروشة بالسجاد. لكن في أثناء صعودنا حدث ما جعلنا نتوقف فجأة، فقد انطفأ النور في الأعلى وانطلق صوت حاد مرتعش قائلاً: معي مسدس، أحذرك، إذا اقتربت فسوف أطلق النار.

صاح الدكتور تريفليان: لقد تجاوز الأمر الحدود يا سيد بلسنغتون.

قال الصوت مع زفرة ارتياح عميقة: حمداً لله، هذا أنت إذن يا دكتور؟ ولكن هل تأكدت من شخصية هذين السيدين؟

أدركنا أنه كان يراقبنا في الظلام بدقّة، وقال الصوت أخيراً: حسناً، حسناً، الأمر على ما يرام؛ يمكنكم الصعود، وأنا أعتذر إذا كانت احتياطاتي الأمنية قد أزعجتكم.

أضاء نورَ الدرَج وهو يتكلم، فرأينا أمامنا رجلاً له مظهر متميز يدل -بالإضافة إلى نبرة صوته- على أن أعصابه محطمة. كان سميناً جداً، وإن بدا أنه كان أسمن في وقت ما، فقد تهدّل جلد وجهه في تجاعيد مترهلة مثل خدود كلب الصيد. وكان لونه شاحباً، وقد انتصب شعره الخفيف الأشقر من الانفعال الشديد، وكان يحمل المسدس في يده ولكنه دفع به إلى جيبه حين اقتربنا.

قال: مساء الخير يا سيد هولمز، أنا ممتنّ كثيراً لقدومك، فلا أحد يحتاجك أكثر مني. أعتقد أن الدكتور تريفليان قد أخبرك بالاقتحام غير المبرر لغرفتي.

قال هولمز: تماماً. مَن هذان الرجلان يا سيد بلسنغتون؟ ولماذا يريدان إيذاءك؟

قال المريض المقيم بعصبية: حسناً، حسناً، من الصعب معرفة ذلك بالطبع، لا يمكن أن تتوقع مني الإجابة يا سيد هولمز.

- أتعني أنك لا تعرف؟

- ادخل هنا لو سمحت، أرجو أن تتفضل بالدخول.

قادنا إلى غرفة نومه التي كنت واسعة وذات فراش مريح، ثم قال وهو يشير إلى صندوق كبير أسود عند نهاية سريره: أترى هذا؟ لم أكن قط رجلاً شديد الثراء يا سيد هولمز، ولم أقم إلا باستثمار واحد في حياتي كما سيخبرك الدكتور تريفليان، ولكنني لا أؤمن برجال المصارف ولا أثق بأحدهم أبداً، وهكذا فالقليل الذي أملكه أضعه في هذا الصندوق، وليبقَ الأمر سراً بيننا يا سيد هولمز. ولذلك يمكنك أن تتخيل

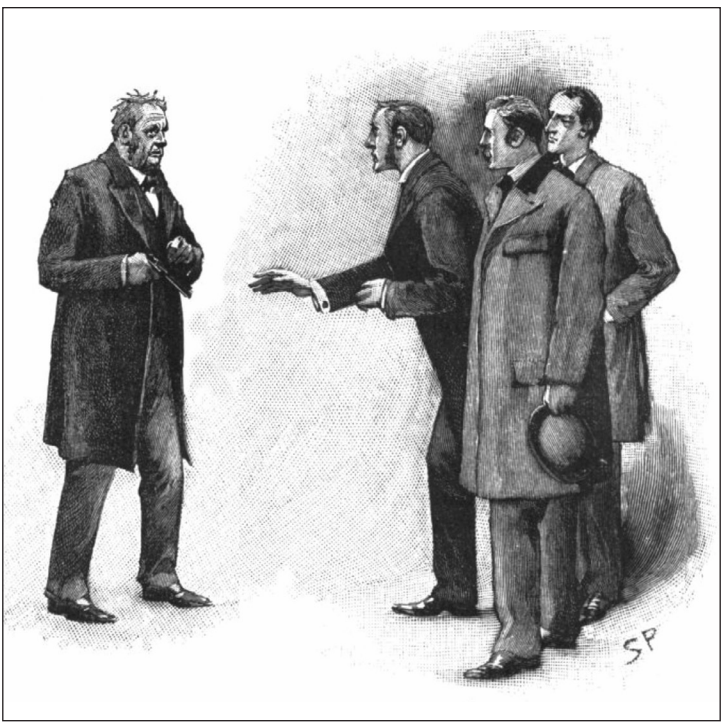

رسم سدني باجيت (١٨٩٣) Sidney Paget (1893)

مدى انزعاجي عندما اقتحم هذان الغريبان غرفتي.

نظر هولمز إلى بلسنغتون بطريقته المتسائلة، ثم هز رأسه وقال: لا أستطيع مساعدتك إذا كنت تحاول خداعي.

- ولكنني أخبرتك بكل شيء!

استدار هولمز على عقبيه ممتعضاً وقال: عمت مساء يا سيد تريفليان.

صاح بلسنغتون بصوت كسير: ولن تعطيني أي نصيحة؟!

- نصيحتي لك يا سيدي هي أن تقول الحقيقة.

* * *

بعد دقيقة كنا في الشارع متجهَين إلى المنزل، وكنا قد عبرنا شارع أكسفورد وقطعنا نصف الطريق في شارع هارلي قبل أن أستطيع انتزاع كلمة من هولمز. قال أخيراً: أنا آسف لإحضارك في هذه المهمة الحمقاء يا واطسون، ولكنها قضية مثيرة للاهتمام في أعماقها على أية حال.

اعترفت قائلاً: لم أفهم منها أي شيء.

- حسناً، من الواضح وجود رجلين (وربما أكثر) مصمّمين على إزعاج هذا الرجل بلسنغتون لسبب ما، ولا أشك أدنى شك في أن الشاب قد اقتحم غرفة بلسنغتون في المرتين الأولى والثانية في حين شغل شريكُه الطبيبَ بطريقة عبقرية حتى لا يتدخل.

- والمرض؟

- محاكاة خادعة للأعراض يا واطسون، بالرغم من أنني لم أجرؤ على التلميح بهذا لطبيبنا الاختصاصي، إلا أنه من أسهل الأمراض التي يمكن تقليدها، حتى إنني فعلت ذلك بنفسي ذات مرة.

- وبعد ذلك؟

- كان بلسنغتون خارج المنزل في المرتين بالمصادفة البحتة، وكان سبب اختيارهما لهذا التوقيت غير الاعتيادي بالذات للاستشارة واضحاً، فقد أرادا أن لا يكون في غرفة الانتظار أحد، ولكن تصادف -على أية حال- أن هذا التوقيت قد تزامن مع نزهة بلسنغتون، مما يُظهِر عدم درايتهما بعاداته اليومية. فلو كانا يريدان المال فقط لحاولا العثور عليه على الأقل، وبالإضافة إلى ذلك أستطيع معرفة ما إذا كان الرجل خائفاً على نفسه أو على ماله من عينيه. من غير المعقول أن هذا الرجل قد صنع مثل هذين العدوين الحقودَين دون معرفة منه، ولذلك أعتبرُ أن من المؤكد أنه يعرف هذين الشخصين ويكتم الأمر لأسباب تخصه، ومن المحتمَل إذن أن يكون أكثر صراحة غداً.

قلت مقترحاً: ألا يمكن أن يكون في المسألة احتمال آخر بديل، وإن كان كريهاً بلا شك ولكنه ما يزال معقولاً. ألا يمكن أن تكون قصة المريض الروسي وابنه كلها من اختلاق الطبيب الذي يريد دخول غرفة بلسنغتون لسبب أو لآخر؟

رأيت في ضوء مصباح الشارع أن هولمز يبتسم مسروراً من هذا التحول العبقري في أفكاري وقال: يا صديقي العزيز، لقد كان هذا من الحلول الأولى التي خطرت على بالي، ولكنني سرعان ما تأكدت من قصة الطبيب، فقد ترك ذلك الشاب آثاراً لأقدامه على سجادة الدرَج مما جعلني في غِنىً عن رؤية تلك الآثار التي تركها في الغرفة، وحين أُخبِرك بأن مقدمة حذاء الشاب مستقيمة الشكل بدلاً من الشكل المدبب لحذاء بلسنغتون وأن حذاءه أطول ببوصة وثلث من حذاء الطبيب، حين أُخبِرك بهذا ستدرك أنه لا يمكن أن يكون للشك مجال بأنه شخص آخر، لا بلسنغتون ولا الطبيب. حسناً، لنترك الأمر الآن، وسوف أكون في غاية الدهشة إذا لم نسمع شيئاً من أصحابنا في شارع بروك غداً صباحاً.

* * *

تحققت نبوءة هولمز سريعاً بشكل درامي، ففي الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي ومع أول شعاع من ضياء الصباح وجدته واقفاً بجوار سريري مرتدياً ملابس النوم وهو يقول: في الخارج عربة بانتظارنا يا واطسون.

- ما الأمر؟

- إنها قضية شارع بروك.

- هل من أخبار جديدة؟

قال وهو يفتح الستائر: أخبار مأساوية ولكن غامضة.

انظر إلى هذه، إنها ورقة من مفكرة تقول كلماتها: «بربك تعالَ حالاً، ب ت».

عرضها عليّ وهو يكمل قائلاً: وقد كُتبت بخط رديء وبقلم الرصاص. لقد كان صديقنا الطبيب في وضع صعب حين كتبها. هيا يا صديقي العزيز، إنها حالة طارئة.

استغرقت رحلتنا إلى منزل الطبيب نحو ربع ساعة، وحين وصلنا اندفع مسرعاً ليقابلنا وعلى وجهه أمارات الرعب! صاح قائلاً وهو يضع يديه على جبينه: يا إلهي، يا للفظاعة!

- ماذا حدث؟

- لقد انتحر بلسنغتون!

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الإصدارات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com